# صورة المقدسات الإسلامية
## في شعر المحنة الاندلسية

بقلم :د/ الربعي بن سلامه

تعد محنة الإسلام والمسلمين في الأندلس من أكبر المحن التي عرفها تاريخ الإنسانية، ومن أكثرها طولا وأشدها ضراوة ووحشية -باتفاق معظم المؤرخين(1) -حيث بدأت مع سقوط مدينة بربشتر في أيدي الصليبين سنة (456 هـ / 1064 م) واستمرت الصليبية بعدها في ابتلاع الأقاليم والمدن الأندلسية ، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس سنة ( 897 هـ/ 1492م).

ولم تنته المحنة بسقوط غرناطة، وإنما استمرت الصلبية في اضطهاد من بقي من المسلمين في الأندلس بعد زوال دولتهم، فأجبرتهم على اعتناق النصرانية، وحرمت عليهم ممارسة الشعائر الإسلامية، ومنعتهم من استخدام اللغة العربية، ولكنهم رفضوا الاستسلام والذوبان، وتصدوا لعوامل الفناء بكل ما توفر لديهم من وسائل وإمكانات، وقد كان الأدب من بين الأسلحة التي وظفوها للمحافظة على مقومات شخصيتهم وتخليد مآسيهم وتضحياتهم.

ولم يعان الأندلسيون ما عانوه من أنواع الاضطهاد إلا لأنهم كانوا مسلمين، ولم يتجرعوا ما تجرعوه من ألوان العذاب إلا لأنهم رفضوا التخلي عن إسلامهم، ولذلك لا نعجب إذا رأينا شعراءهم يهتمون بتصوير المقدسات الإسلامية، ويحرصون على إبراز ما لحقها من تشويه وذل وهوان، وهم لم يفعلوا ذلك لتخليد مآسيهم فقط و إنما فعلوه بقصد تحريك ضمائر المسلمين وإشعارهم بمسؤوليتهم عما يقع للإسلام والمسلمين في الأندلس، لعلهم يمتعضون لحالهم ويهبون لتخليصهم من محنتهم. وقد لاحظنا من خلال تتبعنا للشعراء، وهم

* أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة قسنطينة.

يتحدثون عن محنة الإسلام في الأندلس، أنهم قد تناولوه من زاويتين متكاملتين؛ فنظروا إليه من حيث هو عقيدة وفكرة مجردة ،كما نظروا إليه مجسدا في مقدساته من معالم حضارية وشعائر دينية .وسنلتزم في تتبعنا لألوان هذه الصورة بنظرة الشعراء، فنبدأ بجمع ما تعلق منها بالإسلام من حيث هو عقيدة مجردة، ثم نعود لاستكمال الجانب الثاني من الصورة بتجميع ما تعلق من تلك الألوان بالمقدسات الإسلامية.

**أولا: الإسلام:**

لقد تعددت أوضاع الإسلام، في محنته، كما تعددت أوضاع الأندلس والأندلسيين في محنتهم، فحينما تشتد به الأزمة ويضيق عليه الخناق نراه يتألم و يستصرخ مستغيثا،وحينما يغلب على أمره ويزحزح عن عرشه نراه يسقط صريعا، أو يضطر إلى الرحيل عن مواطنه فيرحل مقهورا ذليلا.

وقد نظر إبن سهل الإشبيلي إلى الإسلام فرآه يعاني من مخاطر شتى، فهو مخلوق توعرت طرقه بعد أن كانت ممهدة، وهو مسافر استنفذ زاده من الماء و اشتد به الظمأ حتى أشرف على الهلاك، أو هو بناء سامق تزعزع ركنه وأصبح مهددا بالسقوط، وهو في جميع الحالات مهدّد بالضياع أو بالموت أو بالانهيار، ولذلك نراه يستنجد بالعرب- لعلهم يعيدون تمهيد سبيله أو يسعفونه بجرعة ماء تحفظ عليه حياته وتمكنه من اجتياز ما هو فيه من قفار مهلكة، أو يدعمون ركنه المتصدع ليحول بينه و بين ما يتهدده من سقوط و انهيار- فيقول :(2)

**أنتم أحق بنصر دين نبيكم**
**وبكم تمهد في قديم الأعصر**
**أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا**
**ذاك البناء بكل ألعس أسمر**
**ضحى الهدى يشكو الظمأ ولات**
**تم ظل و ري كالربيع الممطر**

❀❀❀

**الذين ناداكم و فوق سروجكم**
**غوث الصريخ و بغية المستنصر**
**لم يبق للإسلام غير بقية**
**قد وطنت للحادث المتنكر**
**والكفر ممتد المطالع و الهدى**
**متمسك بذناب عيش أغبر**
**لوصور الإسلام شخصا جاءكم**
**عمدا بنفس الوامق المتحير**
**لو أنه نادى لنصر خصمكم**
**ودعاكم يا أسرتي يا معشري**

وينظر ابن الخطيب إلى الإسلام ، في محنته، فيراه حينا نور الله الذي أحاطت به ظلومات الكفر وكادت تطفئه، ويراه حينا

آخر مخلوقا تشتد به الأزمة ويشرف على الهلاك فيمد يده طلبا للنجدة،ولذلك يستصرخ له المغاربة قائلا: (3)

**أإخواننا لا تنسوا الفضل و العطفا**
**فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا**
**وإذا بلغ السيل الزبا فتداركوا**
**فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا**
**فقوموا بنصر الحق فينا فقد عفا**
**وهبوا لنصر الدين فقد أشفا**

❀❀❀

وينظر ابن المرحل إلى الإسلام فيجده يستغيث ويستنصر المسلمين وهو مشرف على الاستسلام لأعدائه إن لم يتداركه أنصاره بما يشد أزره فيقول:(4)

**استنصر الدين بكم فاستقدموا**
**فإنكم إن تسلموه يسلم**
**لاتسلموا الأسلام يا إخواننا**
**واسرجوا لنصره وألجموا**

❀❀❀

وينظر ابن طفيل إلى الإسلام فيجده بحاجة إلى من ينصره و يشد أزره ، في محنته، فيستنصر له المغاربة قائلا:(5)

**وقوموا لنصر الدين قومة ثائر**
**وفنوا إلى التحقيق فينة راغب**

❀❀❀

أما ابن هارون فيرى الإسلام مخلوقا تزحزحت قدمه عن موضعها، وأصبحت بحاجة إلى من يعيد إليها ثباتها، حينا ،ويراه حينا آخر، حقا انحسر نوره عن الجزيرة الأندلسية لتلفها ظلومات الكفر، فيستنجد له المغاربة قائلا:(6)

**فتح الجزيرة مما سن أولكم**
**فلتثبتوا للهدى في أرضنا قدما**
**يا حسرة الدين والدنيا لأندلس**
**مهما استطال بها التثليث واجترما**
**لم يبق للحق في شتى مطالعها**
**نور فأصبح ليل الكفر مرتكما**

❀❀❀

وينظر ابن الأبار إلى الإسلام، في الأندلس، فيراه قد أصبح وحيدا ذليلا، بعد أن تخلى عنه أنصاره وأسلموه إلى أعدائه، فيقول متحصرا عليه وعلى تلك الربوع التي ترك فيها:(7)

**وحديثه كمد عن الأفق الذي**
**تصف الجنان تلاعه وبطاحه**
**تجري حثيثا تحته أنهاره**
**وتميس لينا فوقه أدواحه**
**قد أسلم الإسلام فيه إلى العدا**
**فأساه برح لا يتاح براحه**

وتمتزج صورة الإسلام بالمسلمين عند شاعر طليطلة المجهول، فيراه صريعا يجب على المسلمين أن يهبوا للأخذ بثأره، كما يجب عليهم أن يبكوه بدمائهم الحارة ، لأن الدموع مهما كانت غزيرة لا تكفي لتخفيف ما تركه مصرعه من أحزان وآلام في النفوس، حيث يقول:(8)

**خذوا ثأر الديانة وانصروها**
**فقد حامت على القتلى النسور**
**مضى الإسلام فابك دما عليه**
**فما ينفي الجوى الدمع الغزير**

❀❀❀

وينظر ابن عميرة إلى الإسلام فيجد أعداءه من المشركين قد حبسوه وضيقوا عليه الخناق ومزقوا أشلاءه ؛ التي تناثرت وتناثر معها الأمل في إدراك ثأره فيقول:(9)

**وعزيمة للشرك جعجع بالهدى**
**أنصارها إذخانه أنصاره**
**قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا**
**آثاره أم كيف يدرك ثاره؟**

❀❀❀

ويبدو الإسلام، عند أبي حفص الهوزني، بناء عتيدا هده الصليبيون في حملتهم المخربة على بربشتر، حيث قال:(10)

**فقد جاء أمر هدّ شرع محمد**
**وما مخبر عن حالة مثل شاهد**

❀❀❀

وينظر القرطاجني إلى الإسلام فيراه بناء قد اندثرت معالمه،وامحت رسومه، بعد أن تداولته الحملات الصليبية المخربة، ومع ذلك فإنه لا يفقد الأمل في بعث تلك الرسوم وتجديدها على يد أبي يحي الحفصي، صاحب بجاية، الذي خاطبه قائلا:(11)

**فجددوا من رسوم للهدى درس**
**هناك يستن فيها الروم والمور**

❀❀❀

وينظر إليه ابن الأبار، بعد هزيمته، فيراه مخلوقا قد غلب على أمره، واضطرته الهزيمة إلى الرحيل عن دياره - التي احتلها الشرك المزهو بانتصاره - فغادرها والحزن يمزق قلبه، ولوعة الفراق تفتت كبده، حيث قال:(12)

**مدائن حلها الإشراك مبتسما**
**جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا**

وبعد هزيمة الإسلام و اضطراره إلى الرحيل عن دياره التي احتلها الكفر، بعد أن زحزحه عنها، ينظر إليه أبو البقاء الرندي فيراه ملتاعا لفراقها ؛ يمزق الأسف قلبه، وتنهمر الدموع من عينيه، وهو ينظر إلى دياره التي غلب عليها، وأخرج منها ذليلا مقهورا، فيقول:(13)

**تبكي الحنيفية البيضاء من أسف**
**كما بكى لفراق الإلف هيمان**
**على ديار من الإسلام خالية**
**قد أقفرت ولها بالكفر عمران**

❀❀❀

وبعد رحيل الإسلام عن الأندلس نرى بعض الشعراء يتمنون عودته إلى ربوعها، ولكن أصواتهم لا تعدو أن تكون نوعا

من الحنين إلى عهد مضى وتولى، كما نرى عند الدقون حينما نظر إلى غرناطة فرآها موحشة، بعد أن رحل عنها الإسلام، وتمنى أن تستعيد أنسها بعودته إلى ربوعها، فقال، وهو يدرك استحالة أمنيته:(14)

**وهل يعود لها الدين الذي أنست**
**به وقد أيست من فتح أبدال**

❀❀❀

وعلى الرغم من تألم شاعر المرية المجهول لغربة ما تبقى من الإسلام في الأندلس، وتمنيه أن لو لم يولد، أو مات قبل أن يصاب الإسلام بهذه الكارثة التي مزقت القلوب وأسخنت العيون فإنه يتمنى عودته إلى ربوعها، ويحن إلى سماع الأذان في أرجائها، فيقول:(15)

**ويا غربة الإسلام بين خلالها**
**ويا عثرة أنى يقال عثورها ؟**
**ويا ليت أمي لم تلدني و ليتني**
**بليت ولم يلفح فؤادي حرورها**
**ويا ملة الإسلام هل لك عودة**
**لأرجائها يشفى الصدور صدورها**
**وهل تسمع الآذان صوت الأذان في**
**معالمها يعلو بذاك عقيرها ؟**

❀❀❀

وإذا كان الشعراء قد اعتمدوا، في رسمهم لصورة الإسلام، على عدد من التشبيهات، فإنهم قد اعتمدوا، أكثر من ذلك، على وسيلة الاستعارة التي مكنتهم من تصوير الإسلام في أوضاع أكثر تعبيرا وأكثر إيحاء. ولكي تأخذ الاستعارة مكانتها، كوسيلة من وسائل التصوير الفني، يستحسن ألا نتوقف بها عند التفسير القديم الذي يعدها نوعا من التشبيه، حين يشرح صورها، فيقول مثلا في شرح صورة:

**تبكي الحنيفية البيضاء من أسف**

❀❀❀

إن الشاعر قد شبه الإسلام بإنسان ثم حذف المشبه به و أبقى على بعض لوازمه كالبكاء والتأسف .فهذا التفسير يهتم ، قبل كل شيء ، بالمحافظة على الحدود الموضوعية لا بين المشبه والمشبه به، و لكن " المشابهة الموضوعية لاوجود لها في الاستعارة غالبا... فالاستعارة بنت الحدس، والحدس تعاطف يتجاوز المشابهة ولا يتقيد بها..."(16) وفكرة التعاطف ، كما هو واضح ،لا وجود لها في تفسير القدماء للصورة الاستعارية ، ولذلك يستحسن أن نستعين بالتفسير الحديث الذي يعطي الاستعارة بعدا نفسيا وفنيا يجعلها من أكثر الوسائل التصويرية قدرة على كسر الحواجز بين الموضوعي والذاتي ، إذ بواسطتها يستطيع

الشاعر أن ينقل أحاسيسه ومشاعره إلى العالم الموضوعي، وبذلك يحقق نوعا من التكامل بين ذاته ومحيطه الخارجي الذي يصبح شريكا له في معاناته.

وقد تمكن الشعراء بالاعتماد على وسيلة الاستعارة من تجسيد الإسلام وتجسيمه، وهذا ما رأيناه عند ابن سهل الاشبيلي وهو يصور معاناة الأندلس حين ناشد العرب أن يهبوا لإنقاذها، فقال:(17)

**أنتم أحق بنصر دين نبيكم**
**وبكم تمهد في قديم الأعصر**
**أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا**
**ذاك البناء بكل ألعس أسمر**
**أضحى الهدى يشكو الظما ولأنتم**
**ظل وري كالربيع الممطر**

❀❀❀

**الدين ناداكم وفوق سروجكم**
**غوث الصريخ وبغية المستنصر**
**لم يبق للإسلام غير بقية**
**قد وطنت للحادث المتنكر**
**والكفر ممتد المطالع والهدى**
**ستمسك بذناب عيش أغبر**
**لو صور الإسلام شخصا جاءكم**
**عمدا بنفس الوامق المتحير**
**لو أنه نادى لنصر خصمكم**
**ودعاكم يا أسرتي يا معشري**

❀❀❀

فقد اعتمد ابن سهل في رسم صورته -بالإضافة إلى بعض التشبيهات- على مجموعة من الاستعارات؛التي ساعدته على تنويع ألوانه، بين التجسيد "الذي يعني تقديم المعنى في جسد شيء أو نقل المعنى من نطاق المفاهيم إلى المادية الحسية "(18) والتجسيم "الذي يسعى عن طريقه الشاعر إلى إيصال المعنى المجرد مرتبة الإنسان في قدرته واقتداره" (19).

وهكذا تتجلى صورة الإسلام (العقيدة) فتبدو شبيهة بصورة الأندلسيين، في ضعفها، أمام طغيان صورة الصليبية التي تتعدد أسماؤها فتكون كفرا وشركا وتثليثا...

وليس غريبا أن ينهزم الإسلام، في هذا الصراع وينهار، فهو وإن كان من الناحية الموضوعية فكرة مجردة مستقلة بذاتها عن الاندلسيين، يظل في الحقيقة مرتبطا بحياتهم ومجسدا لظروفهم ومشاعرهم؛ التي لم تكن، في الواقع، إلا ظروف هزيمة ومشاعر قهر وانهيار كما رأينا، وكما سنرى في صورة المقدسات الإسلامية الأخرى.

## ثانيا : المقدسات الإسلامية:

لم يتوقف الصليبيون عند محاربة العقيدة الإسلامية، من حيث هي فكرة مجردة، ولم يكتفوا

بتحريم ممارسة شعائرها على الأندلسيين، حينما غلبوا على أمرهم، وإنما أمعنوا في الإساءة إلى كل ما تشتم فيه رائحة الإسلام من مظاهر ثقافية ومعالم عمرانية، فاحرقوا الكتب وحرموا على المسلمين النظافة، فخربوا الحمامات، واصبح الاستحمام، كالصلاة، جريمة كافية للمثول أمام محاكم التفتيش، ودليلا على أن من مارسه لا زال على صلة بالإسلام.(20)

وقد تحدث الشعراء عن كل هذه الألوان من العسف والقهر، ولكنهم لم يتوقفوا عند شيء، من المقدسات الإسلامية، كما توقفوا عند المساجد؛ التي هي شعار الإسلام ومطهره الحضاري المادي الثابت، فتناولوا ما طرأ على صورة المسجد من تغيرات، وتتبعوا ما لحقه من تشوهات وإهانات، عبر تاريخ محنته الطويل، ولم يتركوه إلا بعد أن رسموا لمأساته صورة تعد من أكمل صور المحنة واكثرها إثارة لمشاعر الحزن والأسى.

وقد وضع مجهول طليطلة أول لون في صورة مأساة المسجد، حينما ذهبت نفسه حسرات، وطار قلبه فزعا، وهو ينظر إلى مساجد طليطلة التي تحولت إلى كنائس،فقال :(21)

**طليطلة أباح الكفر منها**
**حماها إن ذا نبأ كبير**

❀❀❀

**مساجدها كنائس أي قلب**
**على هذا يقر ولا يطير؟**

❀❀❀

وإذا كان مجهول طليطلة قد أعطانا صورة موجزة ، وإن كانت مؤثرة ، عن المسجد الذي أصبح كنيسة ، فإن ابن المرابط لا يقنع بالإيجاز- وإن كان قد فقد تجلده- وإنما يقف أمام المسجد ويتأنى في رصد ما طرأ عليه من تحولات، فيراه قد تحول إلى كنيسة، ويرفع رأسه إلى الأعلى فيرى القس والناقوس جاثمين على منارة المسجد، و يمتد نظره إلى داخله فيراه قد تحول إلى وكر لممارسة الفواحش، من تعاطي الخمر ولحم الخنزير، ولكنه لا يملك إلا أن يتأسف وهو يرى المسجد قد أقفر من المسلمين الراكعين الساجدين، وغصت أرجاؤه بجبابرة المشركين،فيقول:(22)

**كم جامع فيها أعيد كنيسة**
**فاهلك عليه أسى ولا تتجلد**
**القس والناقوس فوق مناره**
**والخمر والخنزير وسط المسجد**
**أسفا عليها أقفرت صلواتها**
**من قانتين وراكعين وسجد**

**وتعوضت منهم بكل معاند**
**مستكبر مذ كان لم يتشهد**

❀❀❀

وبعد نرى ابن الأبار ، وقد طار قلبه حزنا ، وهو ينظر إلى المسجد، فيراه قد تحول إلى بيعة ، ويسمع فإذا الأذان قد تحول إلى قرع للنواقيس، ولكنه - كسابقه - لا يملك إلا أن يتلهف على ماضي المسجد الذي أصبح في نظره أطلالا، بعد أن، كان محلا لتلاوة القرآن الكريم، فيقول:(23)

يا للمساجد عادت للعدا بيعا
وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها
مدارسا للمثاني أصبحت درسا

❀❀❀

وينظر أبو البقاء الرندي إلى المسجد فيجده قد تحول إلى كنيسة خلت من كل مظاهر الإسلام، وغصت أرجاؤها بالنواقيس والصلبان، ولم يبق فيها غير المحاريب والمنابر التي تجاوبت في البكاء على غربتها، فيقول:(24)

**حيث المساجد قد صارت كنائس ما**
**فيهن إلا نواقيس و ضلبان**
**حتى المحاريب تبكي و هي جامدة**
**حتى المنابر ترثي و هي عيدان**

❀❀❀

و يقف شاعر المرية المجهول متحسرا ،وهو ينظر إلى المساجد التي تحولت قبلتها، ويتأسف لوحشة مآذنها، التي كانت تنبعث منها أصوات المؤذنين، مكبرة مهللة، و يمتد نظره إلى داخل المسجد فيرى ويسمع محرابه وهو يبث لمنبره أحزانه وأشجانه، ويسمع آيات القرآن وسوره، وهي تشكو وحشتها ووحدتها، بعد أن فقدت من كان يعنى بتلاوتها وترتيلها من المؤمنين؛ الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بخاتمتها كل شهر فيقول:(25)

**فواحسرتاه من مساجد حولت**
**وكانت إلى البيت الحرام شطورها**
**ووأسفاكم من صوامع أوحشت**
**وقد كان معتاد الأذان يزورها**
**فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى**
**وآياتها تشكو الفراق وسورها**

❀❀❀

وإذا كان المحراب ، هنا ، يشكو جواه للمنبر، فأن المنبر لم يكن ذاهلا عن شكواه، أو بمنجى عن مأساته، و إنما يراه شاعر المرية في موضع آخر ، فيجده ككل ما في الأندلس ومن فيها باكيا مستعبرا، حيث يقول:(26)

**تريك الأسى أعلامها وهي خشع**
**ومنبرها مستعبر وسريرها**

❀❀❀

وبعده ينظر الدقون إلى المسجد، فيجده قد أقفر من التوحيد والموحدين، وأصبح غاصا

بالتماثيل والنواقيس، وأصبح منبره خاليا من المرشدين والوعاظ؛ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وأقفرت مكاتبه التي كانت مأهولة بالصبية من متعلمي القرآن الكريم؛ الذين كانوا يتلونه بكرة وأصيلا، ولا يملك الشاعر، وهو يتصور ما آل إليه أمر المسجد وملحقاته من وحشة وذل وهوان، إلا أن يطلق صرخة توجع، وإن كان يدرك أن صراخ العاجزين لا يغير من واقع المأساة شيئا، فعذره أنه لم يعد قادرا على احتباس ما يعانيه من آلام، فيقول:(27)

**فلا المساجد بالتوحيد عامرة**
**إذ عمروها بناقوس و تمثال**
**ولا المنابر للوعاظ بارزة**
**للأمر و النهي أو تذكير آجال**
**ولا المكاتب بالصبيان آنسة**
**تتلو القرآن بأسحار و آصال**
**آه على الدين والدنيا وما نفعت**
**آه إذا صدرت من قلب بطال**

❀❀❀

وإذا كانت ألوان صورة الدقون- في معظمها - مستمدة من ألوان صور من سبقوه، فإنه قد توسع فيها بإضافة لون التماثيل الذي لم يستخدمه غيره، كما توسع في تتبع ما طرأ على ملحقات المسجد من كتاتيب وصبيان...

ويقف شاعر أهل الجزيرة - وهو شاعر مجهول أيضا - أمام المسجد فيراه قد أهين بوحشية وحقد صليبيين، وتحول من مكان مقدس طاهر إلى مزبلة تلقى فيها أنواع القاذورات والنجاسات، ويرتاع لما لحقه من ذل وهوان، فيصرخ قائلا:(28)

**وآها على تلك المساجدسورت**
**مزابل للكفار بعد الطهارة**

❀❀❀

وهكذا، يمكن أن نرى أن محنة المسجد قد تجلت عند الشعراء في ثلاث صور أساسية، فهو في أحسن الأحوال يحول إلى كنيسة، فيشحن بالنواقيس والتماثيل والصلبان، وتتغير ألوانه وأصواته، ولكنه يحتفظ، في هذه الحالة، بشيء من حرمته، لأنه يظل محتفظا بنوع من قداسة أماكن العبادة.

أما في الحالة الثانية، فيقرر الأعداء المنتصرون إعدامه حرقا،فيعدم منفردا، أو يعدم بمن فيه وما فيه، كما نرى في تلك الصورة التي قدمها شاعر أهل الجزيرة عن أهل " أندرش " الذين رفضوا التنصر و اعتصموا بجامعهم، حيث قال:(29)

**وأندرش بالنار أحرق أهلها**
**بجامعهم صاروا جميعا كفحمة**

❀❀❀

وأما الحالة الثالثة، فهي أبشع الحالات وأشنعها على الإطلاق وأكثر تجسيدا للحقد الصليبي على الإسلام ومقدساته، وفيها يتحول المسجد إلى مزبلة أو خمارة...أو، فيفقد صفته الإسلامية ويفقد معها كل ما يلزم لأماكن العبادة من قداسة واحترام.

وإذا كان المسجد قد حظي بالكثير من عناية الشعراء نظرا لمكانته العظيمة في الإسلام- فإن بقية المقدسات الإسلامية لم تحظ بمثل ذلك من العناية، إذ لم يلتفت إليها الشعراء إلا قليلا.

فالمصحف - على أهميته وعلو مكانته -لم نعثر له إلا على صورة واحدة، عند شاعر أهل الجزيرة، وهي تعود زمنيا إلى ما بعد عملية التنصير القسري وما تبعها من محاولات لاجتثاث آثار الإسلام من الأندلس، ومن أهمها المصحف الذي أحرق بطريقة وحشية مشينة، تعكس ما كانت تحمله الصليبية من حقد على الإسلام ومقدساته، إذ لم يكتف الصليبيون بإحراقه، وإنما أمعنوا في الإساءة إليه حينما لطخوا قداسته بالزبل والنجاسة، وكذلك عوملت بقية الكتب الدينية والعربية، كما ذكر شاعر أهل الجزيرة وهو يتحدث عن غدر الملك فرناندو و انتهاكه لبنود معاهدة غرناطة، التي ضمنت للمسلمين حريتهم الدينية، حيث قال:(30)

**وخان عهودا كان قد غرنا بها**
**ونصرنا كرها بعنف وسطوة**
**وأحرق ما كانت لنا من مصاحف**
**وخلطها بالزبل أو النجاسة**
**وكل كتاب كان في أمر ديننا**
**ففي النار ألقوه بهزء وحقرة**
**ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم**
**ولامصحفا يخلى به للقراءة**

❀❀❀

وليست عملية إحراق الكتب من ابتداع خيال الشاعر، وإنما هي حقيقة تاريخية أبرز بشاعتها عدد من الباحثين ، ولكنهم اختلفوا في تقدير كمية الكتب التي أحرقت، بعد عملية التنصير، فذكر غوستاف لوبون أن الكاردينال خيمنيس دي تيسنيروس قد أحرق ثمانين ألف مخطوط (31) و أورد الكونت دي سيركور أن بعضهم قدرها بمليون كتاب أو يزيد(32).

وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الوحشية ، فقد حرم على المسلمين - كما قلنا - ممارسة شعائرهم الدينية من صلاة وصيام، وشرعت عقوبة الحرق لمن يضبط متلبسا بجريمة الصوم أو الصلاة، وللتأكد من حسن انتهاك المسلمين لأوامر دينهم، كانت

الكنيسة تفسّد عليهم صيامهم بإجبارهم على تناول الطعام أثناء النهار، كما قال شاعر أهل الجزيرة:(33)

**ومن صام أو صلى ويعلم حاله**
**ففي النار يلقوه على كل حالة**

❀❀❀

**وفي رمضان يفسدون صيامنا**
**بأكل وشرب مرة بعد مرة**

ولم يمنع المسلمون من ممارسة شعائرها فقط،و إنما أجبروا على اقتراف بعض المحرمات كأكل لحم الجيف والخنازير، كما منعوا من ذكر نبيهم بخير، وأمروا بسبه كلما ذكر اسمه أمامهم. وقد نقل شاعر أهل الجزيرة بعضا من هذه الشناعات في رسالة إلى السلطان العثماني، حين خاطبه على ألسنة أهل الأندلس قائلا:(34)

**سلام عليكم من عجائز أكرهت**
**على أكل خنزير ولحم الجيفة**

❀❀❀

**وقد أمرونا أن نسب نبينا**
**ولانذكرنه في رخاء وشدة**
**وقد سمعوا قوما يغنون باسمه**
**فأدركهم منهم أليم المضرة**
**وعاقبهم حكامهم وولاتهم**
**بضرب وتغريم وسجن وذلة**

❀❀❀

وقد صور ابن سهل، قبل ذلك، بعضا من انتهاكات الصليبية لعموم المقدسات الإسلامية، فقال:(35)

**كم نكروا من معلم كم دمروا**
**من معشر، كم غيروا من معشر؟**
**كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا**
**من حلية التوحيد ذروة منبر؟**

❀❀❀

ولا يخفى ما توحي به " كم الخبرية " – التي تكررت أربع مرات في هذين البيتين– من شمولية التخريب وعموم أفعال التشويه والتنكر التي استهدفت عددا كبيرا من الشعائر والمقدسات الإسلامية.

وإذا كانت المحنة قد تجلت – كما رأينا – من خلال الأندلسيين، حينا، ومن خلال الإسلام ومقدساته أحيانا، فإنها في الحقيقة محنة واحدة هي محنة الإنسان التي فاضت لتشمل الإسلام والمقدسات الإسلامية؛ التي لا تعدو، في الواقع، أن تكون امتدادا لمحنة الإنسان الأندلسي. ولهذا لا نعجب إذا رأينا الشعراء، وهم يرسمون صورة المقدسات الإسلامية، يعتمدون على الاستعارة أكثر من غيرها، فهم وإن اعتمدوا اللغة التقريرية المجردة أحيانا، والموحية أحيانا، واعتمدوا على التشبيه أحيانا أخرى، يظل اعتمادهم على

الاستعارة أكثر وضوحا، لأنها هي التي تمكنهم من نقل معاناتهم إلى العالم الخارجي، إذ بواسطتها تتخلى الأشياء والمفاهيم المجردة عن موضوعيتها لترتفع إلى مرتبة الإنسان، ولتصبح امتدادا لأحاسيسه ومستودعا لمشاعره الذاتية، بعد أن أزال الشعراء ما بينها وبينهم من حدود موضوعية، بواسطة تلك الجسور الفنية التي أقاموها لبناء عالم شعري، يمتزج فيه الموضوعي بالذاتي، وتخيم الوحدة والانسجام على مختلف مكوناته المأساوية .

**الهوامش**

(1) حومد، أسعد .محنة العرب في الأندلس. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980م. ص: 5-11.

(2) ابن سهل الأندلسي. ديوان ابن سهل .تقديم: إحسان عباس.بيروت: دار الصادر، 1960م . ص: 140-142.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين-ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام.ط1.تحقيق:محمد الشريف قاهر. الجزائر: ش.و.ن.ت،1973. ص: 628-630.

(4)كنون، عبد الله.النبوغ المغربي في الأدب العربي.ط3.بيروت:دار الكتاب اللبناني،1975م،ص: 03-25.

(5) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك. تاريخ المن بالإمامة.ط1. تحقيق : عبد الهادي التازي. بيروت: دار الأندلس، 1964م.ص 412.

(6) ابن عذاري، المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين - ط1. تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني و آخرين. ( المغرب ) الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985م. ص 384.

(7) ابن الأبّار، محمد. ديوان ابن الأبار. تحقيق : عبد السلام الهراس. تونس: الدار التونسية للنشر، 1985م .ص 131.

(8) المقري، أحمد.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.تحقيق : إحسان عباس. بيروت: دار صادر ، 1968م .ج 4 ص ص 484-485.

(9) الحميري، محمد.الروض المعطار في خبر الأقطار.تحقيق:إحسان عباس.بيروت:1975م.ص 99.

(10) ابن بسام، علي. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق:إحسان عباس، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1978م. 1/2 : 87.

(11) القرطاجني، حازم. قصائد ومقطعات. تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. تونس: الدار التونسية للنشر، 1972م .ص :124.

(12) ابن الأبار- الديوان. 396.

(13) المقري - نفح الطيب. 4 : 487.

(14) المقري، أحمد. أزهار الرياض في أخبار عياض.تحقيق: مصطفى السقا وآخرين. ( المغرب ) المحمدية: مطبعة فضالة، 1978م ج1 ص 106.

(15) خفاجة، عبد المنعم. قصة الأدب في الأندلس، بيروت: مكتبة المعارف، 1962م. 1: 134.
(16) ناصف، مصطفى. الصورة الأدبية. ط3 .بيروت: دار الأندلس، 1983م. ص: 140.
(17) ابن سهل. الديوان. 140-142.
(18) الرباعي، عبد القادر. الصورة الفنية في شعر أبي تمام. ط1. ( الأردن ) أربد: جامعة اليرموك، 1980-ص: 168.
(19) نفسه. ص: 170.
(20) كارديناك، لوي. الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون. ط1. ترجمة: عبد الجليل التميمي. تونس - الجزائر: المجلة التاريخية المغربية و ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م .ص: 41.
(21) المقري. نفح الطيب. 4: 483-484.
(22) ابن خلدون، عبد الرحمن. تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1978م. ج7 ص: 410-411.
(23) ابن الأبار. الديوان. 396.
(24) المقري. نفح الطيب. 4: 487.
(25) خفاجة. قصة الأدب. 133.
(26) نفسه. ص :134.
(27) المقري. أزهار الرياض. 1: 107.
(28) نفسه. ص: 112.
(29) م ن . ص ن .
(30) م ن . ص ن .
(31) LE BON GUSTAVE. La Civilisation des Arabes.
(32) SNED . p 208. CIRCOURT le Comte Albert de. Histoire des Mores Mudéjares et des Morisques. Paris: DENTU t2 p 43.1846.
(33) المقري . أزهار الرياض. 1: 110.
(34) نفسه. ص 112.
(35) ابن سهل. الديوان. 142.